بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلّغ الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أُنزل عليه ، صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

أما بعد :

فلقد خص الله المسلمين بأنهم شهداء على الناس بقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وقوله : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ [الحج : ٧٨] .

ومن هنا كان التكليف من الله عز وجل لهم بالقيام بواجب دعوة الناس إلى الخير ونصحهم وإرشادهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ووصفوا بالخيرية للقيام بهذا الواجب فى قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وعليه ، فلا يصح للمسلمين أن يتوانوا فى أداء واجبهم نحو الناس من

الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإلا تحولت الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد ، مصداقًا لقول الله عز وجل : ﴿ ولولا دفعُ اللهِ النَاس بَعْضَهُم ببعض لَّفسدَت الأرضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، وقوله : ﴿ ولَولا دفعُ اللهِ النَاسَ بعضَهُم بَعْض لَهُدمَت صَوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ﴾ [الحج : ٤٠] .

ولما كان هذا الموضوع بهذه الأهمية ، فقد وقع اختيارنا لهذه الرسالة « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ الذى كانت حياته كلها أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ، وصدعًا بالحق ، وبخاصة فى وجه الحكام الظالمين أو الطوائف المنحرفة عن الدين ـ حيث يكون لنا شرف الاعتناء بها [١] وتقديمها للقراء فى أبهى حلة ، وأصح عبارة ، بأن نقوم على ضبط نصوصها ، وتخريج أحاديثها ، وبعض التعليقات المهمة ، وإتمامًا للفائدة فقد قدمنا بين يدى الرسالة هاتين النقطتين :

الأولى : ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الثانية : جوانب مهمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

واللهَ نسأل أن يتقبل عملنا هذا ، وأن يجعله خالصًا لوجهه ، وأن يعفو عن كل تقصير أو خطأ لا يخلو منه بشر ، وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد ، والحمد لله رب العالمين .

أنور الباز

---

(١) سبق وأن قمنا بذلك أيضًا ضمن تحقيقنا لمجموعة فتاوى ابن تيمية ، إلا أنه هنا أضفنا تعليقات اقتضاها نشرها بمفردها ، إذ معظم التعليقات يمكن لمقتنى مجموعة الفتاوى الاطلاع عليها ، حيث هى متناثرة فى أجزاء المجموعة . أما هنا فتيسيرًا على القارئ فقد وضعنا له التعليقات التى تغنيه عن البحث والعناء من المجموعة أو غيرها .

ترجمة
شيخ الإسلام ابن تيمية

ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية [١]

نسبه ومولده :

هو الشيخ الإمام العلامة الفقيه المُفسِّر الحافظ المحدِّث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، تقى الدين أبو العباس أحمد ابن العالم المفتى شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن عبد الله ابن أبى القاسم بن محمد بن الخضر بن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى.

وقيل فى سبب تسميته بابن تيمية: إن جده محمد بن الخضر حجّ وكانت امرأته حاملا، فلما كان بتيماء قرب تبوك، رأى جارية حسناء الوجه وقد خرجت من خباء، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية، يا تيمية ـ أى أنها تشبه الجارية التى رآها بتيماء ـ فسمى بها، فنسب إليها وعُرِف بها.

وكان مولده فى العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ هجرية بحرّان، وهى بلدة فى الجزيرة بين العراق والشام.

وقد مات والده وهو فى مقتبل العمر، إذ مات سنة ٨٨٢ هجرية وابن تيمية فى الحادية والعشرين، وأما أمه فلم يذكر المؤرخون عنها شيئًا غير أنها عاشت حتى رأت مجد ابنها يكتمل، وعاونته فى جهاده ببرها وحدبها وعطفها.

---

(١) تراجع ترجمته ـ على سبيل المثال ـ فى:
فوات الوفيات للكتبى (١/ ٧٤ ـ ٧٨)، والوافى بالوفيات للصفدى (٧ / ١١ ـ ٢١)، وتاريخ ابن الوردى (٢/ ٤٠٦ ـ ٤١٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٩٥ ـ ٣٠٢)، والدرر الكامنة لابن حجر (١/ ١٤٤ ـ ١٦٠)، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن الأتابكى (٩/ ٢٧١، ٢٧٢)، وطبقات المفسرين للداودى (١/ ٤٥ ـ ٤٩)، والأعلام العلية فى مناقب ابن تيمية للبزار (ص ١٨ ـ ٨٩)، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى (٦/ ٨١ ـ ٨٦)، والبدر الطالع للشوكانى (١/ ٦٣ ـ ٧٢)، وتاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبى زهرة (ص٥٥٨ ـ ٦٠٢).

نشأته وطلبه للعلم :

نشأ ابن تيمية وتربَّى فى بيت علم وفقه، وفى بيئة تتجه به إلى العلم وتحدوه إليه، وقد وجهته الأسرة إلى ذلك فحفظ القرآن وختمه صغيرا، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع فى ذلك، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار. وانبهر بذكائه أهل دمشق لقوة حافظته وسرعة إدراكه، فقد قيل: إنه ما من كتاب فى فن من فنون العلم إلا وقف عليه، وما استمع لشىء ـ غالبا ـ إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه.

قال الذهبى: «كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وصارت بتصانيفه الركبان».

وقال عنه أيضا: « أحمد بن عبد الحليم أبو العباس تقى الدين شيخنا وشيخ الإسلام، فريد العصر علما ومعرفة، وشجاعة وذكاء، وتنويراً إلهيا، وكرمًا ونصحا للأمة، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرّج، ونظر فى الرجال والطبقات، وحصّل ما لم يحصله غيره، برع فى تفسير القرآن، وغاص فى دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع فى الحديث وحفظه، فقلّ من يحفظ ما يحفظه من الحديث، معزوا إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس فى معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم مذهبا، بل يقوم بما دليله عنده.

وأتقن العربية أصولا وفروعا، ونظر فى العقليات،وعرف أقوال المتكلمين وردّ عليهم، ونبه إلى خطئهم وحذر منهم».

وقال الحافظ ابن كثير: « قرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث، وكتب الطِّباق والأثْبات، ولازم السماع بنفسه مدّة سنين، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكيا كثير المحفوظ، فصار إماما فى التفسير وما يتعلق به، عارفا بالفقه واختلاف العلماء، والأصلين والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما تكلم معه فاضل فى فن من الفنون العلمية إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفا به متقنا له، وأما الحديث فكان حافظا له متنا وإسنادا، مميِّزا بين صحيحه وسقيمه، عارفا برجاله متضلعا من ذلك، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة فى الأصول والفروع، كمَّل منها جملة وبيضت وكتبت عنه، وجملة كبيرة لم يكملها، وجملة كمَّلها ولكن لم تبيض.

وأثنى عليه وعلى فضائله جماعة من علماء عصره، مثل القاضى الخوبى، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، وابن الزملكانى وغيرهم.

ووجدت بخط ابن الزملكانى أنه اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطُولى فى حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتبيين».

وقال ابن حجر: « سمع سنن أبى داود، وحصّل الأجزاء، ونظر فى الرجال والعلل، وتفقه، وتمهد، وتميز، وتقدم، وصنف، ودرس وأفتى، وفاق الأقران، وصار عجبا فى سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع فى المنقول والمعقول، والاطلاع على مذهب السلف والخلف ».

وقال الحافظ البزار : « أما غزارة علومه، فمنها : ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء فى تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه، وفنون حكمه وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته؛ فإنه فيه الغاية التى ينتهى إليها، والنهاية التى يعول عليها.

ولقد كان إذا قُرئ فى مجالسه آيات من القرآن يشرع فى تفسيرها، فينقضى المجلس بجملته، والدرس برمته، وهو فى تفسير بعض آية منها.

وكان مجلسه مُقدَّرا بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئا معينا ببيّنه؛ ليستعد لتفسيره.

بل كان كل من حضر يقرأ ما تيسر له، ويأخذ هو فى القول على تفسيره.

وكان غالبا لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضى الزمن المعتاد لأورد أشياء أخر فى معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظرا فى مصالح الحاضرين.

ولقد أملى فى تفسير: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] مجلدًا كبيرًا، وقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] نحو خمس وثلاثين كراسًا ».

وقال أيضا: « وأما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ وأقواله، وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم فى أقوالهم، وأفعالهم، وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم فى دين الله، وما خصوا به من بين الأمة فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضارًا لما يريده منه؛ فإنه قل أن ذكر حديثًا فى مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به إلا وعزاه فى أى دواوين الإسلام هو، ومن أى قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة ».

وقال ابن دقيق العيد: « لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد ».

وقال ابن رجب: « عنى بالحديث وسمع المسند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبرانى الكبير وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء».

وقال العلامة العينى : « كان من العلم والدين والورع على جانب عظيم، وكان ذا فنون كثيرة ولا سيما علم الحديث والفقه، والتفسير، وغير ذلك».

شيوخه :

وكان فى مقدمة شيوخه والده وجدُّه رحمهما الله ، ثم أخذ عن كثير غيرهما، ومن أبرزهم :

١ـ أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسى، توفى سنة ٦٨٢ هـ.

٢ـ عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسى، توفى سنة ٦٨٢ هـ.

٣ـ أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسى، توفى سنة ٦٩٤ هـ .

٤ـ المنجى بن عثمان بن أسعد بن المنجى بن بركات بن المؤمل التنوخى، توفى سنة ٦٩٥هـ.

٥ـ محمد بن عبد القوى بن بدران بن عبد الله المقدسى المرداوى، توفى سنة ٦٩٦ هـ .

تلامذته :

لقد تأهل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، ثم جلس منذ أن بلغ إحدى وعشرين سنة للتدريس والفتوى إلى أن توفاه الله عز وجل، أى أنه درسّ ما يزيد على خمس وأربعين سنة، حيث كانت وفاته سنة ٧٢٨ هـ. لذا فقد أخذ عنه خلق كثير، من أشهرهم :

١ـ الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى، صاحب تحفة الأشراف، توفى سنة ٧٤٢ هـ.

٢ـ الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادى بن قدامة المقدسى، صاحب العقود الدرية فى مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، توفى سنة ٧٤٤ هـ .

٣ـ محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعى الدمشقى، المشهور بابن قيم الجوزية، ومن أخص تلاميذه وألزمهم له، توفى سنة ٧٥١ هـ.

٤ـ الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، توفى سنة ٧٤٨هـ.

٥ـ أبو عبد الله محمد بن مفلح الحنبلى، صاحب الآداب الشرعية، توفى سنة ٧٦٣هـ.

٦ـ أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسى، صاحب المغنى، توفى سنة ٧٧١ هـ.

٧ـ الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، صاحب التفسير، والبداية والنهاية، توفى سنة ٧٧٤هـ.

مؤلفاته :

يقول الحافظ الذهبى: «وأما تصانيفه ـ رحمه الله ـ فهى أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر، سارت مسير الشمس فى الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، قد جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن أحد حصرها، ولا يتسع هذا الكلام لعد المعروف منها ولا ذكرها، وقد بلغت ثلاثمائة مجلدة.

وكتب بخطه من التصانيف والتعاليق المفيدة، والفتاوى المشبعة فى الأفرع والأصول والحديث ورد البدع بالكتاب والسنة شيئا كثيراً، يبلغ عدة أحمال».

وقال البزار : « وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرنى جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبا أحد؛ لأنها كثيرة جدا، كبارا وصغارا، وهى منشورة فى البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه ».

وفيما يلى ذكر لأهم مؤلفاته :

١ـ مجموعة الفتاوى .

٢ـ درء تعارض العقل والنقل .

٣ـ منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية .

٤ـ الفتاوى الكبرى .

٥ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

٦ـ شرح العمدة .

٧ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول .

٨ـ بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية .

٩ـ الاستقامة .

١٠ـ تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكرى .

١١ـ تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء .

١٢ـ الرد على المنطقيين .

١٣ـ النبوات .

١٤ـ نقض المنطق .

١٥ـ بغية المرتاد فى الرد على الفلاسفة والقرامطة .

١٦ـ نقد مراتب الإجماع لابن حزم .

١٧ـ شرح العقيدة الأصفهانية .

١٨ـ بيان الدليل على بطلان التحليل .

١٩ـ المسائل المارديني في فقه الكتاب والسنة ورفع الحرج عن الأمة.

٢٠ـ السياسة الشرعية.

٢١ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

٢٢ـ القواعد النورانية الفقهية.

٢٣ـ التوسل والوسيلة.

٢٤ـ الواسطة بين الحق والخلق.

من صفاته :

لقد اختص الله سبحانه ابن تيمية بصفات فاق بها أقرانه، وكونت ذلك العالم الجليل، بسبب ما تهيأ له من جو وتربة صالحة، ونحن نذكرها فيما يلي:

١ـ حافظة واعية : وهى أساس العلم ، وبمقدارها ومقدار القدرة على استخدامها يكون قدره وسط العلماء،و قد بدت هذه الظاهرة فى صدر حياته، واستمرت ملازمة له حتى وفاته.

٢ـ العمق فى التفكير : فقد كان رحمه الله يدرس المسائل متعمقًا، وكان يدرس الآيات والأحاديث وقضايا العقل ويوازن ويقايس بفكر مستقيم، حتى ينبلج له الحق واضحًا، فلم يكن حافظًا واعيًا فقط، بل كان مدركًا متأملا مستنبطًا فاحصًا، يردد البصر ويسبر غور المسائل، حتى يصل فيها إلى النتائج محققة، وما يصل إليه تدهش له العقول، ويحير الخصوم.

٣ـ حضور البديهة : فقد كان مع قوة حافظته وتعمقه فى الدراسة حاضر البديهة تخرج إليه المعانى من مكامنها سريعة كالجندى السريع يجيب أول نداء، وكان ذلك يبدو فى دروسه، فأرسال المعانى تجىء إليه من غير إجهاد وعند المناظرة يفحم الخصوم بكثرة ما يحفظ، وبحضور ما يحفظ ولهذه الصفة كان

خصوم ابن تيمية يهابون لقاءه، ومن لا يعرفها فيه ويغتر بحجته إذا لقيه يكون عبرة المعتبرين.

٤ـ الاستقلال الفكرى : ولعل هذه الصفة أبرز الصفات فى تكون علمه وشخصيته العلمية التى جعلت له مزايا خاصة ليست فى غيره من العلماء الذين عاصروه، ولقد قال فى استقلاله الفكرى أحد تلاميذه:

« كان إذا وضح له الحق عض عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحدا أشد تعظيما لرسول الله ﷺ، ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى إذا أورد شيئًا من حديثه فى مسألة ،ويرى أنه ينسخه شىء غيره من حديث، يعمل ويقضى ويفتى بمقتضاه،ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنا من كان لا يخاف فى ذلك أميرًا ولا سلطانًا ولا سيفًا، ولا يرجع عن الكتاب والسنة لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى».

٥ـ الإخلاص فى طلب الحق : والإخلاص يقذف فى قلب المؤمن بنور الحقيقة، ويجعله يدرك الأمور إدراكًا مستقيمًا.

وقد تجلى إخلاص ابن تيمية فى أمور أربعة :

أولها : أنه كان يجابه العلماء بما يوحيه إليه فكره، لا يهمه إلا رضاء الله سبحانه ورضا الحق، غضب الناس أو سخطوا.

والأمر الثانى ـ الذى أظهر إخلاصه : تفانيه فى الحق، وجهاده فى سبيله، وقد تحمل فى هذا السبيل البلاء الشديد، والسجن المستمر من أعدائه وأصدقائه على سواء.

والأمر الثالث ـ الذى أظهر إخلاصه وبعده وتنزهه عن الأغراض والأهواء هو: عفوه عمن يسىء إليه، عفا عن العلماء الذين سجنوه، وقد تمكن من رقابهم، وأخيرًا عفا عمن ضيقوا عليه فى آخر حياته حتى مات فى محبسه.

والأمر الرابع ـ الذى بدا فيه إخلاصه : زهده عن المناصب، وكل زخرف الدنيا وزينتها فلم يتول منصبًا، ولم ينازع أحدًا فى رياسة، بل رضى أن يكون المدرس الواعظ الباحث، فلم يهتم برياسة يتنافس فيها المتنافسون، ولذا كان متصلا بالله ولا يرجو النجاة إلا من الله تعالى وقد نجاه، وقد قال الذهبى فى ذلك :

« وكم من نوبة قد رموه فيها عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوى التوكل ثابت الجأش له أوراد وأذكار يديمها».

٦ـ فصاحته، وقدرته البيانية : فقد كان ـ رحمه الله ـ خطيبًا وكاتبًا جمع الله سبحانه وتعالى له بين فصاحة اللسان والقلم، ويظهر أن هذه الموهبة وراثية فى أسرته، فقد كان أبوه متكلمًا مجيدًا، وقد قوى تلك الملكة البيانية، كثرة قراءته للقرآن، وترديده للسنة النبوية وحفظه لها، فإن الكتاب والسنة أمداه بطائفة كبيرة من الألفاظ الجيدة المنتقاة، وفوق ذلك فإن كثرة المعارك البيانية أرهفت قواه وعودته القول الارتجالى.

٧ـ الشجاعة : ومعها صفتان أخريان، وهما : الصبر وقوة الاحتمال، فقد اتصف بالشجاعة فى ميدان الحرب، وإدارة شؤون الدولة والقضاء على الفساد فى مدة الفوضى التى أوجدها غزو التتار لمدينة دمشق الفيحاء، وبدت شجاعته الأدبية طول حياته، فتجرد للمخالفين، واتجه إلى السنة وأعلنها ولو خالفت كل مألوف عند الناس، وكانت هى سبب بلائه، فلما نزل البلاء بدت فيه الصفتان الصبر وقوة الاحتمال.

أما الصبر فقد كان الصبر الجميل الذى لا يتبرم فيه ولا يتململ، وأما قوة الاحتمال فقد بدت فى احتفاظه بكل مواهبه تعمل، انقطع عن الناس نحو سنتين لم يلن ولم يضعف، ولم يحس بإرهاق، بل أحس بوجوب العمل فلم ينقطع.

وعن شجاعته يقول ابن القيم : « وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت منا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا، وقوة، ويقينًا، وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل، فآتاهم من روحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها».

ويقول البزار فى ذلك : « كان رحمه الله من أشجع الناس ، وأقواهم قلبا ، ما رأيت أحدا أثبت جأشا منه، ولا أعظم عناء فى جهاد العدو منه، كان يجاهد فى سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف فى الله لومة لائم ».

٨ ـ حسن عبادته وصلته بالله عزوجل : ولقد كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى محبته للطاعة وانشغاله بربه ـ عزوجل ـ متفردا عن كل الناس، فلم يشغله أهل ولا مال ولا أى شىء عن الله ـ عزوجل.

فهو فى عبادته وكثرة توجهه واستعانته بالله ـ عزوجل ـ لم يُر مثله، وقد كان معظما للشرائع ظاهرا وباطنا، يقول تلميذه ابن القيم:

« حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله ـ تعالى ـ إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلىَّ وقال: هذه غدوتى، ولو لم أتغد سقطت قوتى، أو كلامًا قريبًا من هذا. وقال لى مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلامًا هذا معناه».

وقال البزار: « أما عن تعبده ﷺ فإنه قلّ أن سُمِع بمثله؛ لأنه قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ـ تعالى ـ ما يراد له لا من أهل، ولا من مال.

وكان فى ليله متفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه ـ عزوجل ـ ضارعًا، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، مكررًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وكان إذا ذهب الليل، وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتى بسنتها قبل إتيانه إليهم.

وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام فإذا دخل فى الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى تميله يمنة ويسرة ».

٩ـ حسن أخلاقه : وعن حسن خلقه وإحسانه إلى من أساء إليه يقول ابن القيم: «ما رأيت أحدًا أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أنى لأصحابى مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوةً وأذىً له، فنهرنى، وتنكر لى، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إنى لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجونه فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسروا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضى عنه ».

وفى جواب ابن تيمية رحمه الله عن ورقة أرسلت إليه وهو فى السجن فى رمضان سنة ٧٠٦ هـ ما يدلل على سمو خلقه وسماحته وعفوه عمن أساء إليه، حيث يقول: «فأنا على أى شىء أخاف، إن قتلت كنت من أفضل الشهداء، وكان علىّ الرحمة والرضوان إلى يوم القيامة، وكان على من قتلنى اللعنة الدائمة فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة، ليعلم كل من يؤمن بالله ورسوله أنى إن قتلت

فلأجل دين الله، وإن حُبست فالحبس فى حقى من أعظم نعم الله على، والله ما أطيق أن أشكر نعمة الله على فى هذا الحبس، وليس لى ما أخاف الناس عليه، لا إقطاعى ولا مدرستى، ولا مالى، ولا رياستى وجاهى. وإنما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرياسة والمال، وفسد دينكم الذى تنالون به سعادة الدنيا والآخرة، وهذا كان مقصود العدو الذى أثار هذه الفتنة.

مع أنى فى عمرى إلى ساعتى هذه لم أدع أحدا قط فى أصول الدين إلى مذهب حنبلى وغير حنبلى، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره فى كلامى، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وقد قلت لهم غير مرة : أنا أمهل من يخالفنى ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك. وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف.

هذا مع أنى دائما ـ ومن جالسنى يعلم ذلك منى ـ أنى من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التى من خالفها كان كافرا تارة، وفاسقا أخرى، وعاصيا أخرى، وإنى أقر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ فى المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية.

ما ذكرتم من لين الكلام والمخاطبة بالتى هى أحسن، فأنتم تعلمون أنى من أكثر الناس استعمالا لهذا، لكن كل شىء فى مواضعه حسن، وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته، لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتى هى أحسن. هذا وأنا فى سعة صدر لمن يخالفنى، فإنه وإن تعدى حدود الله فى بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصبية، أو جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتما بالكتاب الذى أنزله الله، وجعله هدى للناس،

حاكما فيما اختلفوا فيه. فأنا أحق من سمع الحق والتزمه وقبله، سواء كان حلوا أو مرا، وأنا أحق أن يتوب من ذنوبه التى صدرت منه، بل وأحق بالعقوبة إذا كنت أضل المسلمين عن دينهم ».

١٠- **تواضعه** : وكان آية فى ذلك، يقول البزار: « فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله فى ذلك؛ كان يتواضع للكبير، والصغير، والجليل، والحقير، والغنى الصالح، والفقير.

وكان يدنى الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المستَحْلى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته؛ جبرًا لقلبه، وتقربًا بذلك إلى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه، أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذى يفارقه كبيرًا أو صغيرًا، رجلاً أو امرأة، حرا أو عبدًا، عالمًا أو عاميًا، حاضرًا أو باديًا.

ولا يجبهه، ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه، ويفهمه، ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط».

١١- **كرمه** : ولقد ضرب ابن تيمية - رحمه الله - فى صفة الكرم أعظم الأمثلة، وكان مجبولا عليه، بلا تصنع، بل هو سجية، يقول البزار:« كان مجبولا على الكرم،لا يتطبعه ولا يتصنعه؛ بل هو له سجية وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قدر على شىء من ذلك يجود به كله.

وكان لا يرد من يسأله شيئًا يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئًا من النفقة، فإن كان حينئذ متعذرًا لا يدعه يذهب بلا شىء، بل كان يعمد إلى شىء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله».

وفاته :

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ ليلة الاثنين ٢٠ من ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ، بعد حبسه فى قلعة دمشق لمدة سنتين وأشهر قبيل وفاته ، وذلك بسبب بعض فتاويه التى لم تعجب بعض علماء السوء آنذاك والتى كان آخرها بمنع شد الرحال إلى القبور !

وقد كانت جنازة الشيخ مثلا واضحا لقول أحمد بن حنبل : « قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم شهود الجنائز » ، حيث حضرها وشهدها من الخلائق ما لا يحصره عد، يقول ابن البزرانى: « لقد اجتمع أهل دمشق لجنازة الشيخ اجتماعًا لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاضر لما بلغوا هذه الكثرة التى اجتمعوها فى جنازته، وانتهوا إليها».

فرحمه الله ورضى عنه وجعله فى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.